قصة من الجزائر

الغائب

بقلم:
جمال عمراف

من هذه الشرفة التي تطل على جزء من البحر ، كانت لا تزال بقية من ضياء ليالي الصيف وعطرها ، هذا العطر الرقيق يغمره انتعاش لحبه بعد ايام التعب . وكان صمت القرية يأتينا بموجة من السعادة . وكنا نسمع في هذه الساعة من الليل آخر أصوات البقر التي يجرها احد الرعاة وهي تعلو ، بينما تنخفض اصوات السكريين الذين يضربون بكعوب احذيتهم ارصفة الشوارع .

واحيانا كانت الانفجارات الشديدة تقطع هذا الخدر البطيء فلم أكن التفت اليها . لقد كنت هنا أقيم في ذهول كامل . فقد كنت احس بنوع خاص من الحنان وكنت احاول الا تضيع مني دقيقة او نبرة واحدة من حديثهم .. كانني للميد لشيط . كنت اتمثل فيهم ابي ، وجدي لأمي . وكانوا يتناقشون ، ويثيرون المشاكل ، ويقاطعون بعضهم البعض . وكان صوتهم هادئا معتدلا وكنت استمع اليهم بجذل وحماس كانني انغمس معهم . وبين حين وآخر ، كان صوت امي يعلو ، كصوت الكورس ، وهي مشغولة بالفرن .

وكنت أعلم ان صوت العاصفة على وشك الهبوب ، لان الموقف يتكرر عندنا كل يوم وكان أبي حين يراها ، وقد هزها الغضب ، يكتفي بان يقطب حاجبيه علامة قلة المزاج . وكانت تستمر في القاء بعض الكلمات غير المفهومة ، وكان جدي يكتفي بالسعال ، أو الابتسام ، من وراء دخنته الرمادية التي ترتجف .

ثم يستقر الصمت تدريجيا ... كانه نقطة زيت ... او يستمر الحديث ولاينتهي

ماذا اقول عن هذه الخطب ؟

وماذا اقول عن مناجاة ابي لنفسه ، التي كنت أكتشفها خلسة ، وكانه يحادث ظلا لايراه أحد غيره ؟

***

كنا في بداية عام ١٩٥٧ . وكان برد الشتاء قد بدا ، ولكن البرد لم يكن شديدا .

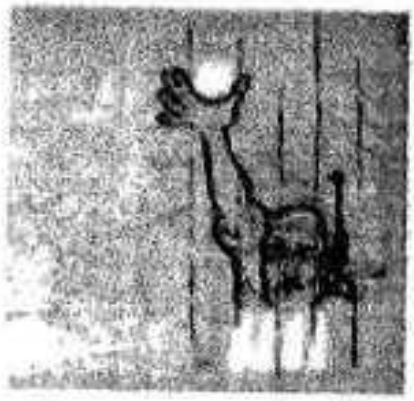

وكانت الجزائر تحارب ، وكانت المدينة ، قد القى عليها الصمت ، والارهاب ، ظلا شديدا ... ينشره حظر التجول كل ليلة .

وكان أبي قد وصل . ولانه عاد ـ كالعادة ـ متاخرا ، فلا يلبث أن ينام . ومن سريري كنت أدرك صوته تماما . وكان الحوار الذي يدور في غرفته مع أمي يبدو لي كأنه يأتي من بعيد كنت اسمع ، وكان الكلام يشق الضباب!

ـ نعم . لتفهمي انني سأتركك ، لانك لم تعودي تتحملينني ولا أحد يستطيع حمل على البقاء

فلابد أن نستمد اليوم أو يوما آخر للانفصال . انك تعلمين ـ تماما كما اعلم ـ اكثر من أي وقت ..

« والحقيقة أن المناقشات استمرت منذ زمن بعيد »

وأضاف وكأنه يختنق

ـ نعم ، سوف أرحل

وكان صوته يصل الى ...

صوت ثقيل ، مثقل بالاحتمالات ، وكان يشق صمت الليل بطريقة غير متوقعة

وظللت منتبها الى تهدج صوته ، الذي يحترق بقلق مفاجيء .. وأنا لا أفهم شيئا

ـ ستهجرنا . أتيوؤ على هجرنا هكذا ؟ الان ؟ في الوقت الذي تحتاجك فيه اشد الاحتياج

وظلت تكرر « أشد الاحتياج » .. بصوت باك

واحسست بالخجل

وزاد قلقي المستمر ، من ذلك الاضطراب المفاجيء .. ولكن أبي كان يبدو عليه أنه لا يستطيع أن يقدم تفسيرا دقيقا .

وفي هذه اللحظة ، كان يهمني أن اعرف ، هل سيتركنا لانه لم يعد يحبنا ... أم مجرد نزوة طارئة

ـ لايوجد حل وسط

ومن الافضل ان تحدث بهذه الطريقة

سأمشي قبل أن الفجر

***

ووجدتني أصيح في داخلي

غريب حقا . غريب : وكيف تنتهي هذه القادة . انها ليست المرة الاولى التي يهدد فيها ، انهما يعودان كل مرة فيتصالحان

وسألته أمي بعد صمت طويل :

ـ وابنك فضيل ... ماذا اقول له ؟

وكان صوتها قد بدا عليه التاثر

وقال بصوت بارد :

ـ قولي له ما حدث ... !

وسمعت اسمي ، وظللت بلا حراك ، تائها في مكمني . وكنت ارتجف خشية ان يكتشف انني انصت الى الحديث

ـ الله رحيم . لا تحملي هما . فضيل سوف ...

وحينئذ انقطع صوته

وقمت ومشيت على أطراف أصابعي ، ناحية الباب الذي لم يوصد تماما ونظرت اليهما بعينين مليئتين بالشجن

كانا متباعدين ، وقد تجمدا تماما . استبد بهما الحزن

وصرخت أمي :

ـ اذن ، ارحل ...

ارحل سريعا . بدلا من أن تعذبني على الدوام

وقبل أن يتجه ناحية الدولاب ، وقف لحظة وقد تجمدت عيناه عليها

وظلت تنظر اليه طويلا . مليا . كانها لم تره من قبل . وأمام هذا المشهد انهارت دموعي التي كنت أكتمها حتى ذلك الحين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قطعت الناس . وعلا صوت الباب . ثم اصبح كل شيء صامتا موحشا . وبدأت اتقلب من جديد . وبعد لحظات كنت اندس تحت الغطاء وقد تجمدت . لا استطيع التحرك . ثم بدأت اسمع التنهدات ،والتوجع الذى يصعد وسط الظلام

وأحسست ، بداية العذاب الذى يبدأ به القلق ، وكان احساسى حادا ، قبل أن ابذل جهدا كبيرا لاقاوم ـ فى خجل ـ تراقص الافكار التى تحاصرنى

وهجم على النوم سريعا

وفى الفجر ، صحوت على صرخة ، ثم شهيجا واضحا : كانت أمى تبكى . وفتحت عينى فى خوف بعد هذه الليلة الطويلة لقد رحل أبى . وزاد قلق الصباح

***

وظللنا على حافة اليأس ، منذ أن رحل ابى ، لا نتكلم

ولكن كان من الصعب أن أسكت

فأمى التى كانت تحس بالذنب من جهتى، كانت تتألم لى ، وقد تغلب الرعب على ، وقد علا صوتها وان كانت قد أصبحت أهدأ مما كانت فيما مضى

وفهمت الصراع الذى يشتعل فى داخلها والندم الذى يداهمها . وأدركت أنه لابد من أن اخبرها بشيء . ولكنى لم أستطع أن افعل شيئا . لاننى لابد أن أجد تفسيرا لما حدث ، هل ستعترف لى بانه تركنا لانهما لايتفقان ؟ لاشك فى ذلك . وأحيانا ، حين كنت أتمرد كانت تتولى الدفاع عن الغائب . وكنت استسلم . وكنت اشك فى القصة التى ترويها لى . « لقد تقلوا اباك » . حقا لقد كانت تتألم ، وكنت استجيب قليلا لتفسيراتها الماكرة التى تفاجئنى بها ، وما كان ينتهى اليه الحديث دائما ، فأثرت فى النهاية أن تفهمنى أن ابى قد هجرنا ، وبدأنا نشير اليه فى بيتنا ، كمخلوق فاشل ، أو كمخلوق نعتبره ميتا . وزاد هياجى ، وتسعت هوة احزانى . وأحيانا لم أكن استطيع الانين ، فكنت ألجأ الى جدى .. مما يزيد من فاجعة الموقف

كان يهتز ، وكأنه يزداد شيخوخة على شيخوخته . وأصبحت أفكر ، اننى مثقل الروح ونما فى داخلى فضول شديد لاعرف مكان أبى لم يكن رجلا مفهوما . وكان غريبا

***

ومرت الحياة ، ثقيلة ، لا يتخللها المرح ، ولا شيء يقطع هذه الرتابة الاليمة . وكنت انتظر تلك اللحظة التى يتمزق فيها شيء أو ينفجر . ولم أعد أستطيع تحمل نفسى . ولما لم تكن أغنياء . اضطررت الى الانقطاع عن المدرسة ، وبدأت ـ بلا اقتناع ـ أعمل عند نجار . وكان يعطينى كثيرا من الوعود ، وقليلا من المال . أما أمى ، فلم تكن متعلمة ، وكادت تفقد بصرها . كانت تعمل ـ وتقتل نفسها فى العمل ـ حتى تأكل . وكنا نحصد قليلا من المال ، ونعيش فى الاحزان، على المال الذى تكسبه أمى ، وأصبحت أقضى بعض الليالى الرهيبة وأنا اجتر نفس أفكارى بلا جديد . وكانت كل أفكارى تدور حول العمل والقلق

وفى أحدى الامسيات ، قبل الانتهاء من العمل ، تأخرت فى المقهى المجاور ، الذى وصل اليه مراد الجزمجى ، وحين رآنى ، تحرك كى يتمالك نفسه ، ثم تقدم منى ووجهه متجهم أكثر من ان يكون قلقا . لم أكن قد رأيته منذ غادرنا ابى . ولم أكن أتوقع هذه المفاجأة . فخفضت رأسى ، وحاولت ان أتجنبه . وكان الحى ـ فى ذلك اليوم ـ محاصرا . وفى الميدان العام كان الجنود يفتشون الاماكن فى قسوة ووحشية . وكان موقفهم غريبا

أما عن أهالينا ، فقد كانوا يشردون .. من منظر الجنود ، وكنت تحس أن ثمة نشاطا جديدا يثيرهم

وقال لى مراد :

ـ انتظر قليلا حتى اخرج معك

وكانت عيناه تنطقان بالاضطراب والهم

والتعب وكانت شفتاه يملوهما جرح يشوههما
قلت له :
ـ لا استطيع
على الرغم من أن تأخرى سوف يعدل من الروتين اليومى الذى سرت عليه .. لكن أمى وحدها فى البيت . وقد بدا الليل فى الهبوط
ـ لاتقلق
وأومأ بذقنه ناحية البنك . واطمئنه لى هدوء
وأخرج قهوته . وشفط جرعة مرة واحدة
ثم تردد مراد طويلا . كأنه يتردد امام خطوة . ثم قال فجأة :
ـ وأبوك ؟
ورادت مخاوفى
بأى حق يكلمنى وبهذه الطريقة المتعالية؟
فقلت بطريقه ميكانيكية . لأنى لم أكن أتوقع سؤاله .
ـ نعم . وأبى ؟
وبنفس الطريقة المتعالية . ونفس الهدوء قلت .
ـ أين هو ؟
وفى هذه اللحظة صوت نظر الى
فقلت . انه منقول
وكان صوتى ينطق بكل الحرج الذى احسه
فخبط مراد خبطة لطيفة على كتفى .. فاسترحت قليلا . وقلت :
ـ نعم انه منقول : كيف لم تعلم ذلك ؟

وبدا عليه التجهم على غير عادته
ـ فضيل . انك كبير . كم عمرك الان ؟
ـ ثلاثة عشر عاما . نعم ، ثلاثة عشر عاما
ـ اذن أنت رجل
وأخذت اتفحص وجهه الذى غمره الانفعال
ـ هل أنت ناقم على أبيك ؟ أم تغفر له ذنبه ؟
وخفضت رأسى . وانا اهمس بصوت حبيس :
ـ لا . لا اعرف له . ولكن ذلك لايمنعنى من أن أحبه
فقد علمنى سوفى هذه اللحظة كنت أكلب
لقد علمنى أن أكون بعيد النظر . وأن أحس بالمسئولية
وابتسمت لمراد .. فقال :
ـ انه رجل . انه رجل عظيم .. لقد رأيته اليوم . وهو لا يتوقف عن التفكير فيك
وكاد القلق والخوف يحطمانى
ـ هل تريد أن تقول انك رأيته بعينيك؟ أين هو ؟
ولم يجبنى
وكان الاضطراب يملأ عينيه
ـ هل تعلم أن البوليس قد ذهب اليكم اليوم ؟
ـ البوليس ؟ عندنا . لأى سبب ؟
ـ انهم يبحثون عنه
وقلت . وانا فى غاية الدهشة :
ـ الهذا السبب .. يحاصرون الحى كله ؟
ـ أكل هذه الدوريات من أجله ؟
وانقطع الحديث لحظة
ـ لقد أخذوا حقك . وهم يبحثون عنى
وأخذ يقول لى القصة بحذر . وكنت أفهم بسرعة . فقد نمات افهم . ان غياب أبى أخذ يتلون بلون آخر . وبدا لى محاطا بالمجد . وأخرستنى المفاجأة ، فبركت مراد وهرولت تجاه بيتنا
واصبح كل شئ جميلا
أصبح جميلا

لقد لمست السر ... فاصبح لى واضحا وظللت احرى كالمجنون تحاه البيت .

كالمجنون تماما

ماذا اقول ؟ وفى اية حال ، وجدت امى وقذفت بنفسى بين احضان امى ، وانا اقول :

ـ من أجل حريتنا . يا امى . انه مقاتل سنصبح احرارا

ـ نعم يا بنى . مقاتل

وغمرت الدموع وجهها . واتسعت نظرتها

ـ سوف تزوره قريبا ؟

ـ اين ؟

واقتربت منى

وظلت صامتة فترة

وعبرتنى رعشة حتى عظامى

ـ لقد قبض عليه فى بربروس .. وسيحاكم غدا ..

كان صوتها يعكس الامل والاضطراب

***

وفى المساء افرجوا عن جدى . لم يعد هناك حاجة الى اقلاقه بالمزيد . كانوا قد حكموا على ابى بالموت حرقا !

يالها من ميتة !

وبعد عشرة أيام ، تمكنا من زيارته ، ووجدناه خلف القضبان ، وكان يبدو كالجبل من القوة والنشاط . ونظر الى بحنان . وتحركت عيناه بحيوية فائقة . وابتلعت امى آهاتها

وقال ابى : نحن من مساجين السياسة ولن يقتلونا

ـ ولكنهم قتلوا عددا كبيرا

ـ انهم يخافون من الاستمرار . انكم تسمعون الانفجارات التى تعقب تنفيذ كل حكم اعدام

وانسابت تلك الثقة الرقيقة فى صوته الى نفسى كالصدى

ـ نعم لقد كنت مع جارى نتناول بعد كل الفجار شيئا من اللبن أو عصير الليمون .. واخذ الحارس يهزنا حتى يخلو المثى وسمعته ونحن ذاهبين ... وهو يصيح :

ابنى فضيل

وكتمت صرخة غضب ... وصعدت الدموع الى عينى

***

وفى الغد ذهبت اليه فى العاشرة . وأمام السجن كانت النساء المحجبات تزدحم وقد تملكهن الالم الشديد . وكن يتدافعن ليقرأن التعليمات المعلقة على الباب . وكانت من بينهن للاخدوجه .. التى ما ان رأتنى حتى اندفعت الى واحتضنتنى ثم انفجرت باكية

ودفعنى حنانها ورقتها المفاجئة ودموعها الى ان أكون اكثر قلقا ، واشد يقظة . كانت تحدثنى ، ولم يكن حديثها مترابطا . من الصبثه ان تؤمن بالقدر ... وتجمدت وانا أحول نظرى عن هذا الفيضان من النساء

قلت والالم يقطعنى ، وأنا اشق طريقى :

ـ فهمت

وبشكل شىء كان نائما لى داخل منذ زمن طويل ، واستولى على تماما . وصحبتنى مجموعة من النساء الى البيت ، وكانهن يقمن بطقس من الطقوس . وحين وصلنا الى البيت ، انهارت امى ، فاندفعت اليها ثم الى قدميها ، اناشدها الشجاعة . وظلت يداى فى يديها وقتا طويلا ، وعلت الزغاريد بشدة ، ثم ماتت الاصوات ، وعادت كأنها النار . ثم هدأت الاصوات مرة ثانية ولفها الصمت ، ثم تكلمت امى ، وقد امتلأ صوتها بالشكوى والاستسلام :

اجلسوا يا أخوات

لقد مات « شهيد »

لنتناول القهوة معا

وسكت البكاء

***

وفى السماء ، كانت السحب ترسم رسوم «الارابيسك» وتصعد ناحية اليمين تجاه الضوء . وكان البحر رماديا . ولا يسمع الا صوت المياه